فقه الإصلاح بين التربية والسياسة
عند الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله

د/ أحمد الخاطب
مؤسسة دار الحديث الحسنية للدراسات الاسلامية العليا
- الرباط – المغرب.

تقديم:

يستمد هذا الموضوع أهميته من أهمية الشيخ عبد الحميد بن باديس باعتباره أحد أبرز رجالات النهضة والاصلاح في العالمين العربي والاسلامي في العصر الحديث، بما تحمله كلمة الرجال من معاني الصدق والإخلاص مع الله ومع الأمة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1]. كما تكمن أهميته كذلك من خلال الرسالة الإصلاحية التي اضطلع بها الشيخ عبد الحميد بن باديس وما ترتب عنها من آثار حضارية كبرى على الجزائر والجزائريين. أما السياق الحضاري للحركة الاصلاحية للشيخ ابن باديس، فلا يمكنه أن يخرج عن التقدير الكبير للشيخ ابن باديس لمكانة العلماء ومسؤوليتهم في الاسلام. فإذا كانت حكمة الله سبحانه وتعالى قد اقتضت أن يتوقف مسلسل النبوة ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام، وأن يتوقف معه مسلسل الرسالات السماوية برسالة الإسلام الخالدة ليكون محمد عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وليكون الإسلام هو خاتم الرسالات والأديان السماوية، فهي ذاتها الحكمة الإلهية التي اقتضت أن يكون العلماء ورثة الأنبياء، مصداقا لقوله ﷺ: "إن العلماء ورثة الأنبياء". وإرثهم هو الذي قال عنه ﷺ، في نفس الحديث: "إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر"[2]. والأمة الإسلامية باعتبارها خير أمة أخرجت للناس، هي الأمة التي شرفها الله تعالى باحتضان خير البشر وأفضل الأنبياء والرسل، وهي التي أهلها الحق سبحانه وتعالى لاحتضان إرث سيدنا محمد ﷺ في شخص علمائها الأجلاء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[3]. فعلماء الإسلام إذن، هم ورثة نبينا محمد عليه أزكى الصلاة والسلام، وظيفتهم الشريفة تبليغ علمه ﷺ ورسالته إلى الإنسانية جمعاء عبر كل الأزمان، وإنارة السبيل أمام البشرية لإخراجها من الظلمات إلى النور. ونحن بحول الله وقوته بصدد الحديث عن عالم

من علماء هذه الأمة العظيمة، ومجدد من مجددي دينها في القرن الرابع عشر الهجري، إنه الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله. ولا شك أن أمر التجديد هذا من الزاوية التاريخية، قد أملته ظروف وتحكمت فيه محددات تاريخية صنعت منه سياقا مناسبا لظهور هذا الرجل بفكره الإصلاحي التجديدي. فما هي إذن ملامح السياق التاريخي الذي ظهر فيه الإمام عبد الحميد بن باديس ؟

من المعلوم أن الأمة الإسلامية قد مرت في مسارها التاريخي بسياقات مختلفة تحكمت في تحديد وزنها وأثرها الحضاري بين الأمم[4]. فإذا كانت أمة الإسلام قد طبعت تاريخ العالم في العصر الوسيط بطابعها الخاص، من خلال نشر نفوذها السياسي والحضاري على معظم العالم الوسيط، من خلال توالي الإنجازات السياسية والحضارية منذ عهد النبوة مرورا بدولة الخلافة الراشدة والدولتين الأموية والعباسية. فإنها مع بداية العصر الحديث بدأت تعرف انكماشا وتراجعا في دورها السياسي والحضاري في العالم، وتمثل ذلك واضحا من خلال تراجع النفوذ الجيوسياسي للمسلمين في بعض الافاق الاستراتيجية، وفي مقدمتها الأندلس. فقد شكل سقوط دولة المسلمين في الاندلس بداية العد العكسي في علاقة الأمة الإسلامية مع القوى الغربية الناهضة حديثا، حيث انتقلت المبادرة من الطرف الأول إلى الطرف الثاني. فانطلق مسلسل المد الإيبري الصليبي نحو شمال إفريقيا الإسلامية ونحو العالم الآخر. ولعله من رحمة الله بهذه الأمة أن هذا التحول في موازين القوى بين الاسلام والغرب لم يتم دفعة واحدة. ففي الوقت الذي تراجع فيه نفوذ المسلمين بالغرب الإسلامي، كانت القوة الإسلامية العثمانية تتصاعد في الشرق الإسلامي وتنشر نفوذها في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وعلى أوربا الشرقية. مما جعل التوازن يتواصل بين الاسلام والغرب لقرون من العصر الحديث. لكن منذ القرن التاسع عشر، اختلت موازين القوى كليا لصالح الغرب، فتوالت النكسات التي أصابت الأمة مشرقا ومغربا، بضعف الخلافة العثمانية وسقوط ولاياتها تحت سيطرة الاستعمار الغربي، ومنها الجزائر منذ سنة 1830م. وباعتبار أن هذا الاستعمار الغربي لم يكن حدثا تاريخيا ظرفيا أو طارئا، بل كان نتاج صراع حضاري عميق ممتد في التاريخ، فقد استهدف بعد التمكن من الجغرافيا باحتلال الأرض، الانتقام من التاريخ بتحطيم الأسس والمقومات التاريخية والحضارية للأمة العربية والإسلامية. وابتكر لذلك سياسات واستراتيجيات، وسخر لتنفيذها وسائل وإمكانيات بشرية ومادية هائلة. ولذلك، لم يترك مجالا من مجالات الحياة في هذه البلاد إلا واستهدفها بإجراءاته الخطيرة. فقد استهدف الأرض للتمكن من خيراتها وأقام عليها التجهيزات والمؤسسات التي تضمن له ذلك. لكنه استهدف أساسا الإنسان- صاحب هذه الأرض- لإخضاعه لسلطته وسطوته بالقوة والنار

أحيانا وبالسياسة والثقافة أحيانا اخرى. فكان لابد من استهداف هذا الإنسان في هويته الحضارية المتمثلة في الدين واللغة والتاريخ...باعتبارها المحدد الاساس لوجوده التاريخي. وإذا كان هذا الاستعمار قد تمكن من التحكم في الارض واستنزاف خيراتها الباطنية والسطحية بفعل ما تملكه من تفوق تكنولوجي حربي ومدني، فإنه لم يتمكن من تحقيق الهدف الثاني للسيطرة على الإنسان المسلم. نعم، لقد استطاع شق صف المجتمعات الإسلامية وكسب إلى جانبه فئات اجتماعية ونخبا تداخلت مصالحها مع مصالحه وانسلخت عن جلدتها وثقافتها وهويتها وحاولت أن تتقمص جلده ولباسه وثقافته فأصبحت ناطقة بلسانه ورافعة لشعاراته...لكن رغم كل ما بذل من جهد في هذا السياق من طرف الأوساط الاستعمارية وأدواتها الداخلية، فقد ظلت الأمة ثابتة الأركان، قائمة الأسس. ولعل الفضل في ذلك راجع بالأساس - بعد فضل الله سبحانه وتعالى- إلى ورثة الأنبياء من أمة سيدنا محمد ﷺ.

لقد برهن علماء الأمة عن صدق وإخلاص في الوفاء لرسالة الإسلام والحفاظ على الإرث النبوي المحمدي. في هذا السياق المفعم بالتحديات الحضارية والتاريخية يمكن أن نؤطر الجهود الإصلاحية للإمام المجدد عبد الحميد بن باديس في الجزائر. فالرجل ولد الولادة البيولوجية والولادة الفكرية والحضارية في سياق تاريخي عسير على الأمة الجزائرية، حيث ازداد رحمه الله سنة 1889م بعد مضي أكثر من نصف قرن على الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830م)، فكانت الأمة الجزائرية مهددة في وجودها الحضاري والبيولوجي، من خلال حرب الإبادة البيولوجية والحضارية التي كان يخوضها الاستعمار الفرنسي ضدها بمختلف الوسائل، عبر سياسة الحديد والنار، وعبر سياسة القلم والكلمة التي استهدفت تفكيك أوصال الهوية الجزائرية وشطبها من الوجود الهوياتي للأمم، وإلحاق الجزائر سياسيا وإداريا بفرنسا وإدماجها كليا في هويتها.

وقد كان علماء الجزائر الخلص على وعي بحقيقة هذا الاستعمار، فقد اعتبره الإمام محمد البشير الإبراهيمي استعمارا صليبيا، لم يتوان منذ احتلاله الجزائر عن محو الإسلام، باعتباره الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعن محو العربية كذلك باعتبارها لسان الإسلام، وعن محو العروبة باعتبارها دعامة الإسلام. وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك ظاهرة وخفية، سريعة ومتأنية[5].

وهكذا، عايش الإمام ابن باديس حالة الجزائر وهي تحت نير الاستعمار، مستهدفة في وجودها التاريخي وهويتها الحضارية، وليس فقط في خيراتها ومواردها المادية. فكان لا بد والحالة هاته، من جهاد يعبر عن عمق الارتباط بهوية الأمة وأصالتها الحضارية. وهي المهمة

التي كان طبيعيا ان يضطلع بها العلماء ورثة الانبياء، وفي مقدمتهم الإمام المجدد عبد الحميد بن باديس بالجزائر من خلال مشروعه الإصلاحي النهضوي، الذي عمل على بنائه من خلال جهاد فكري طويل داخل الوطن وخارجه(قسنطينة، الزيتونة بتونس، مصر، الحجاز، الشام: سوريا لبنان فلسطين)[6]. واستمر طيلة حياته كالطود الشامخ يربي ويوجه ويعلم ويجاهد مع إخوانه في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين(1931) من أجل إسلامية الجزائر وعروبتها واستقلالها ووحدتها المجتمعية، إلى أن لقي ربه رحمه الله سنة (1359/1940). وسنحاول في هذا البحث الإجابة عن تساؤلين اثنين:

- ما هي ملامح فقه الإصلاح التربوي والسياسي في المشروع الإصلاحي الباديسي؟
- ما العلاقة بين البعدين التربوي والسياسي في المشروع الباديسي؟

المحور الأول/ فقه الإصلاح التربوي عند الإمام عبد الحميد بن باديس :

لماذا الإصلاح التربوي؟ ما أهمية الإصلاح التربوي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس؟ ما مرجعيته في التعاطي مع هذا الإصلاح؟ ما غاياته ومراميه وأهدافه منه؟ إلى أي مدى يصح القول بامتلاك الشيخ عبد الحميد بن باديس لمشروع تربوي واضح المعالم؟ كثيرة هي التي التساؤلات والإشكالات التي تفرض ذاتها على الباحث وهو يحاول أن يلملم أطراف هذا الموضوع الشاسع والغزير، شساعة وغزارة العطاء الباديسي في هذا المجال وغيره.

1/ المشروع التربوي الباديسي: مقاصده وأهدافه:

يصعب علينا أن نقول، في البداية، إن الشيخ عبد الحميد ين باديس لم يفرد مؤلفا خاصا بالتربية تأصيلا وتنظيرا وأجرأة[7]، لكن الرجل فقيه تربوي بامتياز، حيث إن فكره التربوي مبثوث في ثنايا آثاره، حاضر في كل ممارساته سواء تلك التي بدت متصلة بالتربية أو بغير التربية. لقد كان لابن باديس مشروع تربوي واضح المعالم والأركان سواء من حيث المرجعية أو من حيث المقاصد والأهداف أو من حيث الوسائل والأساليب. لقد أدرك الشيخ عبد الحميد بن باديس حجم التحديات التي تواجه الأمة الجزائرية في ظل الاستعمار الفرنسي البغيض، واستوعب بعمق خطورة السياسة الاستعمارية الفرنسية واستراتيجيتها الخطيرة التي كانت تستهدف اقتلاع الأمة الجزائرية من جذورها الحضارية دينا ولغة وثقافة وتاريخا وحضارة...لذلك، جعل الشيخ ابن باديس التربية هي المدخل الأساس للإصلاح الشامل الديني والثقافي والاجتماعي والسياسي. ومن ثم، يمكن ترتيب المقاصد والأهداف الكبرى للمشروع التربوي الباديسي على الشكل التالي:

أ- **الحفاظ على المقومات الروحية للامة الجزائرية:** فالتربية هي الوسيلة للحفاظ على المقومات الروحية الضرورية لبقاء الأمة الجزائرية على قيد الحياة، إذ" لا بقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته ومميزاته"[8]. وهذه المقومات هي الإسلام واللغة العربية والعلم والفضيلة، وتلكم هي المقومات التي استهدفها الاستعمار بسياسته متعددة الاوجه. وقد كان الشيخ ابن باديس حريصا على تنبيه الشعب الجزائري إلى خطورة استهداف مقومات شخصيته الحضارية، حيث يقول رحمه الله مخاطبا الشعب الجزائري في المؤتمر السنوي لجمعية العلماء، سنة 1937م : "حوربَت فيكم العروبة" و"حورب فيكم الإسلامُ"، و"حورب فيكم العِلمُ"، "وحوربت فيكم الفضيلةُ "[9]. ولذلك، كان رحمه مصرا في مشروعه الإصلاحي على الرجوع بالشعب الجزائري إلى عقائد الإسلام المبنية على العلم، وفضائله المبنية على القوة والرحمة، وأحكامه المبنية على العدل والإحسان، ونظمه المبنية على التعاون بين الأفراد والجماعات والتآلف والتعامل والتعاون.

ب- **بناء الانسان والمجتمع الجزائريين:** إن التربية عند الشيخ ابن باديس تربية شاملة: تربية روحية دينية، وتربية على المواطنة، وتربية على الأخلاق الفاضلة، "إذ لا حياة لك (المسلم الجزائري) إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك"[10]. لكن كان لابد في البداية من تصحيح العقيدة باعتبارها أولوية الأولويات لدى إمامنا عبد الحميد بن باديس، حيث يقول :"إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا، وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر"[11]. ولذلك وجدناه يعطى الأولوية في نضاله لمواجهة الطرقية وما يرتبط بها من ممارسات بدعية[12].

ومن فقهه التربوي في هذا المجال، إدراكه لمختلف جوانب الشخصية الإنسانية، حيث كان يعتبر أن التعليم والتربية هما المدخل الأساس لبناء الشخصية المتكاملة للمواطن الجزائري بأبعادها المختلفة(الخلقية والعقلية والعملية والعضوية)، حيث يقول:" إن الكمال الإنساني متوقف على قوة العلم، وقوة الإرادة، وقوة العمل، فهي أسس الخلق الكريم والسلوك الحميد" ثم يقول: "وحياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاث: الإرادة، والفكر، والعمل...وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لابد للإنسان منها، فالعمل متوقف على البدن، والفكر متوقف على العقل، والإرادة متوقفة على الخلق، فالتفكير الصحيح، والإرادة القوية من الخلق المتين، والعمل المفيد من البدن السليم، فلهذا كان الإنسان مأمورا بالمحافظة على هذه الثلاثة: عقله وخلقه ودينه، ودفع المضار عنها، فيثقف عقله بالعلم، ويقوم أخلاقه بالسلوك النبوي، ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء، وتوقي الأذى،

والتريض على العمل"[13]. ولعل الغرض من هذا التكامل هو بناء الشخصية القادرة على قيادة المجتمع والأمة والوطن إلى مراتب التحضر والتقدم.

ج- **تحقيق نهضة ورقي الامة الجزائرية:** والتربية كذلك وسيلة لرقي الأمة ونهضتها. ولذلك فالإمام ابن باديس لم يفتأ عن توجيه الجزائريين بالتوجيهات التربوية التي تدفعهم إلى الرقي والتقدم. فقد دعا الجزائريين ليكونوا عصريين في فكرهم وعملهم واقتصادهم. يقول مخاطبا المسلم الجزائري:" كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك ورقيك"[14]. وكان لا يرضى بتخلف الجزائريين عن الفرنسيين[15]. فالتربية عند الإمام ابن باديس لم تكن دعوة للحفاظ على الهوية والانزواء في ركن من أركان الماضي، بل هي أيضا وسيلة للتكيف مع العصر ومواكبته، وتطلع واستشراف للمستقبل، مما يجعل الشيخ ابن باديس متميزا بنظرته الثاقبة إلى الزمن الحضاري بأبعاده الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، حيث يقول:" إنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله، فأخذ الأصول الثابتة من الماضي، وأصلح شأنه في الحال، ومد يده لبناء المستقبل، يتناول من زمنه وامم عصره ما يصلح لبنائه، معرضا عما لا حاجة له به، أو ما لا يناسب بشكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته"[16].

د- **تطوير التعليم باعتباره اساس الاصلاح:** هذه الأهمية التي أعطاها الشيخ ابن باديس للتربية بصفة عامة، لا يمكن ان يترتب عنها إلا نفس الموقف من التعليم، حيث جعله " أساس الإصلاح"[17]. لقد كان موقف الإمام ابن باديس حاسما من أهمية التعليم في نجاح الحركات الاصلاحية، وبالتالي في نجاح المجتمعات في نهضتها، فهو أساس الإصلاح، باعتباره طريق إصلاح العلماء الذين هم المصلحون الحقيقيون للمجتمع. وهي علاقة جدلية تستلزمها معادلة الإصلاح. يقول الإمام ابن باديس:" لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم فإنّما العلماء من الأمّة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كلّه، وإذا فسد فسد الجسد كلّه، وصلاح المسلمين إنّما هو بفقههم الإسلام وعملهم به وإنّما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكذلك المسلمون يكونون. فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم. ولن يصلح العلماء إلاّ إذا صلح تعليمهم. فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته وما يستقبل من علمه لنفسه وغيره فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم"[18].

هـ- خدمة الإنسانية: إذا كنا قد لاحظنا في البداية أن الشيخ ابن باديس كان حريصا من خلال فكره التربوي على حماية الهوية الجزائرية وتربية المواطن الجزائري تربية إسلامية ووطنية خالصة، فها نحن نجده أيضا يعتبر نفسه في خدمة الإنسانية، فلم يكن داعيا إلى الانغلاق والصراع الحضاري بل كان داعيا إلى خدمة الإنسانية، حيث يقول:" إن خدمة الإنسانية في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمي إليه، ونعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه"[(19)].

ولذلك، يمكن القول إن المقاصد والأهداف التربوية التي كان يتطلع إليها الإمام ابن باديس تتميز بالتكامل المطلوب في كل المنظومات التربوية المعاصرة. فد برهن الرجل عن وعيه التربوي العميق بضرورة جعل المنظومة التربوية في خدمة المواطن والوطن والأمة والإنسانية. ولذلك، كان طبيعيا أن يحضر سؤال المرجعية بقوة في هذا المشروع التربوي. فكيف استطاع الإمام عبد الحميد بن باديس أن يحدد مرجعية تصوره التربوي؟

2/ ابن باديس وسؤال المرجعية التربوية:

أ- **المرجعية الإسلامية:** من الطبيعي أن تكون المرجعية الأساس للمشروع التربوي للشيخ ابن باديس هي المرجعية الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ومنهج السلف الصالح. لكن هذه المرجعية لا تعني أبدا الانغلاق على الذات والوقوف في وجه المرجعيات الأخرى التي يقتضيها العصر. ولذلك، وجدنا الشيخ عبد الحميد بن باديس بقدر حرصه على التشبث بالمرجعية الاسلامية، بقدر ما وجدناه أيضا حريصا على المرجعية الوطنية والمرجعية الإنسانية الكونية في تكامل وتعاون من أجل تحقيق المقاصد التربوية المنشودة. لقد آمن ابن باديس بأنه لا سبيل للشعب الجزائري للتقدم والخلاص مما كان عليه من وضع إلا باللجوء إلى الاسلام والتشبث به دينا ومرجعا تربويا وحضاريا. ولذلك، عمل ما في وسعه لإرجاع ضمير الأمة إلى الحقيقة القرآنية باعتبارها منبع الهداية الأخلاقية والنهوض الحضاري، عبر قنوات التربية والتعليم. فجعل همه تكوين رجال قرآنيين قادرين على توجيه التاريخ وتغيير حال الأمة. ولذلك جعل القرآن أساس التربية والتعليم، حيث يقول رحمه الله:" فإننا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من اول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن من أول يوم وفي كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها"[(20)]. وفي حديثه عن مرجعيته في إصلاح التعليم الديني، أبرز رحمه الله بأنه "لن يصلح هذا التعليم إلاّ إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته فيما كان يعلم -

صلى الله عليه وآله وسلم- وفي صورة تعليمه، فقد صح عنه- صلى الله عليه وآله وسلم- فيما رواه مسلم أنه قال:إنما بعثت معلما... "[21]، واتباع ما كان عليه السلف الصالح في القرون الفضلى، حيث كان التعلم والتعليم مبنيان على التفقه في القرآن والسنة.

ب- **المرجعية الوطنية:** وبقدر ما كان الشيخ ابن باديس يلح على الاعتزاز بالدين، كان أيضا يلح على الاعتزاز بالوطن لزرع الثقة بالنفس لدى المواطن الجزائري، حيث يقول: " لم لا نثق بأنفسنا، وقد أعطانا الله عقولا ندرك بها؟ وقد أعطانا من هذا الدين الإنساني ومن هذا الدين العقلي والروحي ما يكمل عقولنا ويهذب أرواحنا، اعطانا منه ما لم يعط لغيرنا، لنكون قادة وسادة واعطانا وطنا شاسعا مثل ما لغيرنا، فنحن إذن شعب عظيم يعتز بدينه، يعتز بلغته، ويعتز بوطنه يستطيع ان يكون في الرقي واحدا من هذه الشعوب"[22]. لكن الاعتزاز بالدين والوطن لم يحل بينه وبين نقد الممارسة التاريخية للمسلمين في مجال التربية والتكوين سواء في الجزائر أو خارجها. فقد توجه بالنقد للمناهج التربوية التي كانت قائمة سواء في جامع الزيتونة بتونس أو في المدارس والمعاهد ومؤسسات التعليم الشرعي القائمة في وطنه، والتي أصيبت كلها بالعجز والعقم وتحولت من إدراك المقاصد وتحقيق الأهداف إلى استنزاف الطاقة. أما المدارس التي أقامها المستعمر الفرنسي فقد كانت تستهدف هدم الهوية العربية الاسلامية وتذويب الشعب الجزائري، ومن ثم، فقد وجد نفسه على النقيض المطلق معها

ج- **المرجعية الغربية الحديثة:** رغم موقفه من المدارس الفرنسية، فقد الشيخ ابن باديس واعيا بأهمية التعليم الممارس بها، باعتباره الحاضن للعلوم العصرية التي كان يؤمن بفائدتها وأثرها الإيجابي على المجتمع. ولذلك، كان حريصا على تنبيه الشباب الجزائري من إغفال هذه العلوم، حيث يقول رحمه الله موجها خطابه للمسلم الجزائري:" احذر كل متعيلم يزهدك في علم من العلوم فإن العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الانسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة، وخدم علماء الاسلام بالتحسين والاستنباط ما عرف منها في عهد مدنيتهم الشرقية والغربية حتى اعترف بأستاذيتهم علماء أوربا اليوم"[23]. هذه الرغبة في الاستفادة من علوم العصر جعلته يدعو إلى تعلم اللغات الغربية في دعوة صريحة للانخراط في العالم المعاصر، حيث يقول :" إن الذي يحمل علم المدنية العصرية اليوم هو أوربا، فضروري لكل أمة تريد أن تستثمر تلك العقول الناضجة وتكتنه دخائل الاحوال الجارية، أن تكون عالمة بلغات أوربا. وكل أمة جهلت جميع اللغات الغربية، فإنها تبقى في عزلة عن هذا العالم مطروحة في صحراء الجهل والنسيان من الامم المتقدمة التي تتقدم في هذه الحياة بسرعة لم يسبق لها مثيل"[24]. وكثيرا ما كان يدعو الشباب المتعلم في إطار التعليم الغربي إلى استثمار

معرفته لفائدة وطنه، حيث يقول موجها خطابه لهذه الفئة:" عليكم أن تلتفتوا إلى أمتكم فتنتشلوها مما هي فيه، بما عندكم من علم، وما اكتسبتم من خبرة، محافظين لها على مقوماتها سائرين بها في موكب المدنية"[25].

هكذا، برهن الإمام عبد الحميد بن باديس على امتلاكه لفقه تربوي أصيل ومعاصر في نفس الوقت. ولعل الأجمل في شخصيته الإصلاحية هو انه لم يكتف بالتنظير فقط، على اهميته العظمى، بل عمل في الميدان على تنزيل تصوره التربوي رغم كل العوائق والإكراهات التي كانت تواجهه ومعه علماء الجزائر وكل المواطنين والمناضلين الشرفاء ضد المؤسسة الاستعمارية وأذرعها الخبيثة في كل المجالات. ولذلك، وجدناه رحمه الله حريصا على تنزيل عملية إصلاح التعليم في المدارس والمعاهد والمساجد، ويستثمر الصحافة للتربية والتكوين، ويرعى الطلبة الموهوبين، ويحرص على تعليم الفتاة، ويبحث عن التمويل اللازم للنهوض بأوضاع التعليم والمعلمين[26]، وغير ذلك من الإجراءات التي تبرهن على تفاعله المتبصرمع مشروعه التربوي لإصلاح أحوال الأمة دينا ودنيا.

المحور الثاني: فقه الإصلاح السياسي عند العلامة الإمام ابن باديس:

1/ اشتغال ابن باديس بالسياسة بين النفي والإثبات:

إن الحديث عن فقه الإصلاح السياسي عند الإمام عبد الحميد بن باديس يكتسي أهمية خاصة في إطار مقاربة المشروع الإصلاحي العام لهذا المفكر العظيم. فالرجل باعتبار تكوينه الديني السلفي يراه البعض بعيدا عن الفكر السياسي، وبالتالي أنى له أن يمتلك فقها إصلاحيا في المجال السياسي، ويرسمون له دائرة التحرك الفكري التي لا تتجاوز حدود الاشتغال بالقرآن والحديث وما يرتبط بهما من علوم الشريعة والعقيدة. ولعل هذا التصور المغلوط لا ينسحب فقط على عالمنا الإمام ابن باديس بل يمتد ليتم إسقاطه على معظم علماء الإسلام الذي برعوا خصوصا في مجالات التربية والدعوة.

وقد يجد هذا التصور تفسيره في عاملين على الأقل، يتمثل الأول في تأثير المرجعية العلمانية على قراءة الفكر الاسلامي وبالتالي على تقييم عطاءات علماء الإسلام من خلال حشرهم في زاوية محددة هي زاوية الفكر الديني بمعناه التقليدي. أما العامل الثاني فيرجع إلى تقصير أهل هؤلاء العلماء ومحبيهم والمخلصين لفكرهم في التعريف بعطاءات هذه النجوم التي تلألأت في سماء الفكر والحفاظ على تراثهم حيا في جسد الأمة يزودها بالطاقات الحضارية المتجددة على مر الأزمان. وقد يتخذ التقصير أشكالا متعددة، منها مسألة "سوء الفهم" أو عدم الإحاطة الشاملة الدقيقة والواعية بأفكار هؤلاء العلماء. ولعل من الأمثلة الدالة على هذا

الوجه ترويج بعض محبي الإمام عبد الحميد بن باديس لأطروحة إقبال الإمام على العمل الديني وإعراضه عن العمل السياسي، مستندهم في ذلك ما نشره الامام في جريدة "الصراط السوي"، حيث قال :" وبعد فإننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها عن علم وبصيرة وتمسكا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا من النصح والإرشاد وبث الخير والثبات على وجه واحد، والسير في خط مستقيم.و ما كنا لنجد هذا كله إلا فيما تفرغنا له من خدمة العلم والدين، وفي خدمتهما أعظم خدمة وأنفعها للإنسانية عامة. ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهرا ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحيتنا، ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها ولكان أسهل شيء علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها وأن نبلغ من نفوسنا إلى أقصى غايات التأثير عليها، فإن مما نعلمه ولا يخفى على غيرنا أن القائد الذي يقول للأمة "إنك مظلومة في حقوقك وإنني أريد إيصالك إليها" يجد منها ما لا يجده من يقول لها: "إنك ضالة عن أصول دينك وإنني أريد هدايتك" فذلك تلبيه كلها، وهذا يقاومه معظمها أو شطرها، وهذا كله نعلمه، ولكننا اخترنا ما اخترنا لما ذكرنا وبينا وإننا فيما اخترناه- بإذن الله- لماضون وعليه متوكلون"[27]. ولعل التعليقات الواردة في بعض المواقع الفكرية تؤكد هذا المنحى في التعامل الضيق مع فكر الإمام عبد الحميد بن باديس[28].

ولعل السياق التاريخي الذي نشأ فيه الإمام ابن باديس ووجد الجزائر والأمة الإسلامية تتخبط فيه، لم يكن ليسمح لعالم متنور مثله أن ينأى بنفسه عن الانشغال والاشتغال بالسياسة وهمومها. وحتى أولئك الذين ارتموا في أحضان المستعمر يسندون قراراته ويؤيدون سياساته سرا أو جهرا فقد انخرطوا بشكل أو بآخر في السياسة. فما بالك بالعلماء العاملين مثل ابن باديس الذين لم يكونوا ليرضوا لأمتهم وأنفسهم الذل والهوان بالخضوع لعدو في الدين والوطن أبى إلا أن يسحق شعبهم ويمزق أمتهم ويذيب هويتهم ودينهم ويلغي وطنهم من الوجود ويلحقه بفرنسا الاستعمارية[29]. هكذا لا يمكن أن نقبل بأطروحة إعراض ابن باديس عن السياسة وإقباله على التربية فقط.

صحيح، لقد أقبل الإمام ابن باديس على التربية وعلى العمل الديني ليس زهدا في السياسة والعمل السياسي، بل اقتناعا منه بضرورة تهيئة البنية التحتية لصناعة الأجيال التي ستضطلع بمهمة التحرير. كما أن الدراسة الشاملة لفكره تثبت اشتغاله بهذا المجال وانخراطه فيه انخراضا عضويا كما سيتضح[30]. كما وجد الإمام ابن باديس نفسه من خلال تكوينه الفكري باعتباره عالما مسلما بتعمقه في دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وتاريخ الحضارة الإسلامية، ومن خلال رحلته في طلب العلم التي امتدت من المغرب إلى المشرق

ومكنته من الاتصال المباشر وغير المباشر برواد الفكر النهضوي والاطلاع على مشاريعهم الإصلاحية للوطن العربي والأمة الإسلامية في العصر الحديث، وجد الإمام نفسه في مواجهة التحديات التي كانت تواجه الأمة الإسلامية مدركا لمخاطرها المحدقة بها مقدرا لمسؤوليته الدينية والوطنية، مما جعله يتصدى بكل ريادة لقيادة التغيير الحضاري في وطنه الجريح بالعمل على مختلف الواجهات، ومنها الواجهة السياسية فكرا وممارسة. ولذلك، لم يكن ابن باديس في يوم من الأيام ضد الاشتغال بالسياسة أو زاهدا فيها. ولإن ظهر في بداية مشواره الجهادي منشغلا ومشتغلا بالتربية وشؤونها، فإن ذلك مما اقتضته ضرورة العصر، وآستوجبته شروط النهضة. وقد تنبهت الدوائر الاستعمارية إلى خطورة الجهاد التربوي الذي كان يضطلع به ابن باديس. تقول إحدى الصحف الفرنسية آنذاك عن جهود عبد الحميد بن باديس وأمثاله من العلماء:" إن سياستهم الحاضرة تنحصر في الاعتصام بحصن الثقافة والدين وهذا يتيح لهم أن يتدخلوا في كل شيء، منتظرين أن يتقدم- في المستقبل الموعود- رجال آخرون لاستعمال السلاح الذي يصقلونه هم اليوم ويشحذونه بأيديهم"[(31)]. وعندما تطلب الأمر أن يرد ابن باديس على تهمة اشتغال العلماء المسلمين بالسياسة رد قائلا:" ما هذا العيب الذي يعاب به العلماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة، فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى من رجال الديانات الأخرى؟ وهل كانت الأكاديمية الفرنسية خالية من آثار الوزير القسيس رشيليو؟ أيجوز الشيء ويحسن إذا كان هناك ويحرم ويقبح إذا كان من هنا؟ كلا لا عيب ولا ملامة. وإنما لكل امرئ ما ختار ويمدح على حسب سلوكه في اختياره"[(32)]. ويقول متحدثا عن واجب العلماء في المجتمع:" فالإسلام لا يحجر على العلماء التدخل في أي شأن من شؤون العامة - كما يزعم البعض في هذه البلاد- بل هم أولى من غيرهم بذلك ،وهم رعاة الأمة المسؤولون، وليس لغيرهم أن يستهجن فعلهم أو يلومهم إذا هم قاموا بما يجب عليهم نحو أمتهم، وليست مهمة العالِم في الإسلام قاصرة على التدريس والإرشاد فقط- وبعد فهل كان العلماء في كل أمة وفي كل عصر إلا قادة الفكر والسياسة والدين؟"[(33)].

وفي سياق آخر جعل ابن باديس إصلاح السياسة شرطا لإصلاح العلم والثقافة. ولعل هذا ما عبر عنه حين دعي للمشاركة في حفل علمي في تونس سنة 1355هـ/1937م وطلب إليه أن يتحدث عن أحوال الجزائر العلمية والثقافية، فأبى أن يتحدث عن العلم والثقافة وحدهما، وربط ربطا عضويا بين العلم والسياسة، حيث قال " كلامنا اليوم عن العلم والسياسة معاً، وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول لأنهم تعودوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة مع أنه لابد لنا من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم إلاّ إذا نهضت السياسة بجد"[(34)]. وإذا استحضرنا بعض مواقفه التي ربط فيها بين إصلاح

العلماء وإصلاح المجتمع، بل واعتبار ذلك شرطا لإصلاح المجتمع، يترتب عن ذلك القول منطقيا –حسب ابن باديس- بأنه لا إصلاح في المجتمع بدون إصلاح السياسة. فما هي إذن ملامح فكره السياسي؟ وما الأهمية التي احتلها هذا الفكر في مشروعه الإصلاحي؟ وما مرجعيته في ذلك؟

2/ الفكر السياسي الباديسي وسؤال المرجعية:

من الطبيعي أن يكون المنطلق الأساس للإمام ابن باديس في فكره السياسي كما في فكره التربوي هو الدين الإسلامي كما جاء من خلال القرآن الكريم والسنة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين. فالإسلام بالنسبة له منظومة متكاملة وشاملة لكل مناحي الحياة الانسانية، حيث يقول رحمه الله تعالى: " إن الشريعة المحمدية بما سنت من أصول وما وضعت من نظم وما فرضت من أحكام، أعظم الشرائع وأكمل الشرائع في المحافظة على حياة الناس وحريتهم، وما كان انتشارهم ذلك الانتشار العظيم في الزمان القليل على يد رجالها الأولين، إلا لما شاهدت فيها الأمم من تعظيم للحياة وللحرية، ومحافظة عليها، وتسوية بين الناس فيهما؛ مما لم تعرفه تلك الأمم من قبل، لا من ملوكها ولا من أحبارها ورهبانها "[35]. ولذلك، فالإسلام هو" دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به"[36]. لكن ابن باديس يميز بين إسلامين:

- "الإسلام الوراثي"، وهو "الإسلام التقليدي الذي يؤخذ بدون نظر ولا تفكير. وإنما يتّبع فيه الأبناءُ ما وجدوا عليه الآباء". إسلام يتسع للخرافات والبدع الاعتقادية والعملية. ورغم بعض مزاياه في خدمة الهوية، لكنه "هذا الإسلام الوراثي لا يمكن أن ينهض بالأمم، لأن الأمم لا تنهض إلا بعد تنبّه أفكارها وتفتح أنظارها. والإسلام التقليدي مبني على الجمود والتقليد، فلا فكر فيه ولا نظر"[37].

- أما "الإسلام الذاتي"، فهو "إسلام من يفهم قواعد الإسلام، ويدرك محاسن الإسلام في عقائده، وآدابه وأحكامه وأعماله...". وفي هذا الاسلام يكون المؤمن به هو من "يبني ذلك كله على الفكر والنظر". وهما اللذان بهما "تنهض الأمم، فتستثمر ما في السماوات وما في الأرض، وتشيّد صروح المدنية والعمران"[38]. وإلى جانب الاسلام نصا وتاريخا، والعروبة لغة وتاريخا، ينفتح الإمام ابن باديس على الخبرة الإنسانية المتراكمة سواء من خلال تاريخ الأديان والمذاهب الفلسفية المعاصرة أو من خلال تاريخ الشعوب بما فيها الشعب الفرنسي ليستمد منها أفكاره السياسية، ومن خلال متابعته للأحداث الجارية في عصره بوطنه الجزائر وفي العالم

العربي والاسلامي والعالم بصفة عامة[39]، مما يجعل منه حقيقة فقيها سياسيا أصيلا ومعاصرا في نفس الوقت.

3/ تجليات الفكر السياسي الباديسي:

أ- موقف ابن باديس من قضايا الوطن: كان لابد أن تشكل مفاهيم وقضايا الوطن والوطنية والأمة والهوية والجنسية وغيرها من المفاهيم والقضايا المماثلة بؤرة اهتمام الوطنيين الجزائريين، ليس فقط بفعل خضوع الجزائر للاستعمار الفرنسي آنذاك، ولكن أيضا بفعل خصوصية هذا الاستعمار الذي استهدف محو هذه القضايا من ذاكرة الجزائريين باعتماده سياسة إدماج وإلحاق الجزائر والجزائريين بفرنسا. ولعل المتتبع للمسار النضالي للشيخ عبد الحميد بن باديس سوف ينتبه بدون شك إلى الطابع المرحلي الذي تميز به، حيث انتقل من " مرحلة إظهار الأمل في فرنسا ومداراتها سياسيا" إلى " مرحلة التأكيد على المقومات الذاتية للأمة، وتميزها الحضاري" إلى "مرحلة اليأس من فرنسا" والمطالبة بالاستقلال[40]. خلال هذا المسار تطور الفكر السياسي للإمام ابن باديس. فكانت مرحلة النضال من أجل ترسيخ الذات الحضارية بمختلف مكوناتها من أبرز مراحل تبلور هذا الفكر. ذلك، أن السياسة الفرنسية في الجزائر أسهمت بشكل قوي في تفجير النقاش حول مفهوم ووجود الوطن في حد ذاته بين الجزائريين . وانخرط فيه العلامة عبد الحميد بن باديس بقوة مبرهنا على امتلاك علماء الأمة لفقه سياسي عميق واستيعاب دقيق لمفاهيم العصر. ولذلك، فعندما تجرأ فرحات عباس على إلغاء وجود الوطن الجزائري وإلغاء الأمة والقومية الجزائرية وتأييده المطلق لفكرة إلحاق الجزائر بفرنسا، معتبرا أن الأمة الجزائرية مجمعة على اعتبار نفسها أمة فرنسية بحتة، لا وطن لها إلا الوطن الفرنسي[41]؛ تصدى له العلامة ابن باديس لإثبات الوجود التاريخي والديني والقومي للجزائر والجزائريين، حيث رد عليه قائلا:" الأمة الجزائرية المسلمة ؛ متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية اللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها، بما فيها من حسن وقبيح، شأن كل أمة في الدنيا . ثم إن هذه الأمة الجزائرية المسلمة ليست هي فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد ؛ في لغتها ؛ وفي أخلاقها ؛ وفي عنصرها ؛ وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة "[42].

إن هذا الربط الجدلي بين الأمة والوطن يؤكد امتلاك العلامة ابن باديس لفكر سياسي عصري يؤمن بالوطن ككيان له حدود ومعالم تعيش فوقه أمة تتميز بخصوصيات حضارية

تختلف عن فرنسا وغيرها. ولا شك أنه كان سباقا إلى تحديد مفهوم الوطن والوطنية بالجزائر، بعد أن ظنت فرنسا وظن الكثيرون معها أنها جعلت الجزائر مقاطعة فرنسية، حيث اعتبر الوطن بأنه " قطعة من الأرض التي خلقها الله منها (أي الأمة) ومنحها لها، وأنها هي ربتها وصاحبة الحق الشرعي والطبيعي فيها، سواء اعترف لها به من اعترف أو جحده من جحد"[43]. وفي هذا التحديد رد مباشر على كل من يتبنى أطروحة الإلغاء للوطن الجزائري سواء من الفرنسيين أو من أتباعهم الجزائريين. ولم يدخر جهدا في زرع الروح الوطنية من خلال مختلف المنابر. يقول رحمه الله مؤكد على قيمة الإخلاص للوطن :" الإخلاص أن تعمل لوطنك ؛ ولو أنكرك وأنكر عملك أبناء وطنك، وتكريس العمل أن تكون جميع أعمالك عائدة بالخير عليك وعلى وطنك، فتستطيع أن تنفع الناس كلهم دون أن تضر بوطنك، فتكون قد خدمت وطنك بما زرعت له من محبة في قلوب من أحسنت إليهم من الناس "[44]. وعن الوطن، يعتبر أن حب الوطن من الإيمان، باعتبار أن هذا الاخير بترابه ومائه وهوائه ونباته وحيوانه هو أصل تكوين الانسان المواطن ؛ ومادة غذائه ومسرح طفولته وشبابه، "فكيف تكون مؤمنا إذا لم تحب هذا المحسن العظيم"، ثم أن الإسلام ما جاء في محبة الوطن إلا بما تقتضيه الفطرة ويقبله العقل ويعترف به حكماء الأمم[45] . ولما كان الأمر كذلك ؛ فيجب علينا يقول رحمه الله أن نحب من يحب وطننا ويخدمه، ونبغض من يبغضه ويظلمه، ونخلص لكل من يخلص له، ونناوئ كل من يناوئه ؛ من بنيه ومن غير بنيه، لأنه " لا شرف لمن يحافظ على شرف وطنه، ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه "[46].

ولعل هذه الروح الوطنية المفعمة بالإيمان هي التي جعلته يتصدى للدفاع عن قضية أخرى هي قضية القومية الجزائرية في إطار مناهضته لسياسة التجنيس ودعاتها، مستغلا تلك الفرصة لتعميق الوعي السياسي لدى أتباعه بالقومية الجزائرية. وفي هذا الصدد يقول" تختلف الشعوب بمقوماتها ومميزاتها كما يختف الإفراد، ولا بقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته ومميزاته كالشأن في الأفراد، فالجنسية القومية هي مجموع تلك المقومات وتلك المميزات وهذه المقومات والمميزات هي : اللغة التي يعرب بها ويتأدب بها، العقيدة التي يبني حياته على أساسها، والذكريات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها، والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات والمميزات"[47]. وبعد هذا التقعيد النظري، انتقل للحديث عن القومية الجزائرية وأصولها، حيث يقول: "وبعد فنحن الأمة الجزائرية، لنا جميع المقومات والمميزات لجنسيتها القومية. وقد دلت تجارب الزمان والأحوال، على أننا من أشد الناس محافظة على هذه الجنسية القومية، وأننا ما زدنا على الزمان إلا قوة فيها، وتشبثا بأهدابها، وإنه من المستحيل إضعافنا فيها، فضلا عن إدماجنا أو محونا"[48]. وعلى هذا

الأساس جاءت فتواه رحمه الله بتحريم التجنيس الفرنسي لبني قومه، حيث اعتبر أن التجنس بغير الجنسية الإسلامية يعتبر ارتدادا عن الاسلام بالإجماع، لما يترتب عن ذلك من إسقاط لأحكام الشريعة الإسلامية[49]. كما أفتى بحرمة زواج الجزائري المسلم بالمرأة غير المسلمة. وبهذا الإجراء تمكن من إفشال سياسة التجنيس رغم كل الإمكانيات المادية والمعنوية التي رصدتها لها الإدارة الاستعمارية [50]. وتمكن بالتالي من الحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية وقوميتها وجنسيتها، في مواجهة زحف التجنيس والإدماج الفرنسيين. وارتباطا بقضايا الوطنية والقومية، دافع الإمام ابن باديس عن الهوية الجزائرية بمختلف مكوناتها. فدافع عن الإسلام وعن اللغة العربية، كما دافع أيضا عن الأمازيغية. وبذلك، تمكن بفقهه السياسي الثاقب من الحفاظ على الوحدة الوطنية وغنى الهوية الجزائرية، وأسهم رحمه الله في إفشال سياسة "فرق تسد" الاستعمارية، "فأبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر، ووحدهم في السراء والضراء حتى كونت منهم – منذ زمن طويل – أفرادا مسلمين جزائريين أمهم الجزائر؛ وأبوهم الإسلام "[51]. إن مواقف ابن باديس من هذه القضايا الحيوية في حياة الشعوب والأمم، كانت بمثابة الوقود للثورة الجزائرية، حيث تمكن رحمه الله – ومعه علماء الجزائر- من القيام بثورة فكرية لتصحيح الوعي الديني والسياسي والوطني لدى الجزائريين، بعدما كانت فرنسا قد اطمأنت إلى أن الجزائر قد أصبحت مقاطعة فرنسية - لحما ودما- بها بعد قرن من الاحتلال. انتقل الإمام ابن باديس للمطالبة بالاستقلال الجزائري بعدما قطع شوطا في التأطير الفكري والسياسي والتربوي للمواطنين. فأعماله التربوية والتعليمية ومقالاته الصحافية عن قضايا الهوية والوطنية والقومية كلها كانت تصب في التهييئ للهدف الأسمى وهو الاستقلال. وفي هذا الصدد أيضا تندرج كتاباته عن المفاهيم السياسية مثل العدل والحرية والإصلاح والاستقلال.... ففي 1937سنة، وجه نداء إلى الأمة الجزائرية ونوابها من أجل توحيد صفهم فكان ذلك تحولا نوعيا في الخطاب السياسي للإمام بابن باديس، حيث قال لهم: "أيتها الأمة الكريمة! أيها النواب الكرام! اليوم وقد آيسنا من غيرنا، يجب أن نثق بأنفسنا، اليوم وقد تجوهلت قيمتنا، يجب أن نعرف نحن قيمتنا، اليوم وقد خرست الأفواه عن إجابة مطالبنا، يجب أن نقول نحن كلمتنا، اليوم وقد اتحد ماضي الاستعمار وحاضره علينا، يجب أن تتحد صفوفنا"[52]. وفي مقال له بعنوان " حول كلمتنا الصريحة " يقول: إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا، وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا الذين يدعون الغيب مع الله، ويقولون إن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد، فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ، فمن الممكن أنها تزداد

تقلبا مع التاريخ، وليس من العسير، بل إنه من الممكن أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي(...) وتصبح بلاد الجزائر مستقلة استقلال واسعا، تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر"[53]. وأصبح رحمه الله مستعدا، ليس فقط للمطالبة بالاستقلال الجزائري، بل لإعلان الثورة على فرنسا[54].

ج/ موقفه من القضايا العربية والاسلامية: كان الإمام ابن باديس مؤمنا بوحدة الأمة العربية التي ترتكز على روابط متينة قومية وأدبية وتاريخية. فكان مؤمنا بانتماء الشعب الجزائري إلى الأمة العربية، ومؤمنا أيضا أيضا بوحدة المغرب العربي. وكانت له إسهامات نضالية في هذا المجال(مراسلات ومواقف مع زعماء المغرب العربي). فالمغرب العربي وطن واحد بآماله وآلامه، إذ حيث ما توجهنا إلى ناحية من نواحي التاريخ وجدنا هذا المغرب العربي يرتبط بروابط متينة روحية ومادية تتجلى بها وحدته[55].

أما موقفه من القضية الفلسطينية، فيبرهن بصدق على تكوينه الفكري والسياسي العميق، حيث اعتبر القضية نتاج تحالف استراتيجي بين الاستعمار البريطاني والمشروع الصهيوني. يقول رحمه الله في مجلة "الشهاب "[56] :" تزاوج الاستعمار الإنكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة، فأنتجا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل وقذف بهم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة، فأحالوها جحيما لا يطاق، وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحا لا يندمل" . واعتبر الامام ابن باديس أن القضية الفلسطينية قضية صراع حضاري بين الصهيونية والغرب والإسلام والعرب،"فليست الخصومة بين كل عرب فلسطين ويهودها ولا بين كل مسلم ويهودي على وجه الأرض، بل الخصومة بين الصهيونية والإستعمار الإنجليزي من جهة والإسلام والعرب من جهة" . ولذلك حمل "كل مسلم مسؤول، أعظمَ المسؤولية – عند الله تعالى – على كل ما يجري هنالك: من أرواح تُزهق، وصغارٍ تُيتم ونساء تُرمل، وأموال تُهلك، وديار تُخرّبُ، وحُرماتٍ تُنتهكُ، كما لو كان ذلك كلُّه واقعًا بمكة أو المدينة، إن لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع!"[57]. وكان على يقين بأن مستقبل الصراع سيكون عربيا إسلاميا ضد الصهيونية إذ سيأتي ذلك اليوم الذي ستعرف فيه الصهيونية أنها أمام العالم الإسلامي والعربي، لا أمام فلسطين وحدها[58]. كما حمل الجميع مسؤولية الدفاع عن القدس، حيث قال رحمه الله:" الدفاع عن القدس من واجب كل مسلم"[59].وكانت له بهذا الشأن مراسلات بهذا الشأن. أما عن موقفه من حدث إسقاط الخلافة العثمانية في عام 1924م، فخلافا لجل العلماء المسلمين، لم يحتج ابن باديس على إسقاط الخلافة العثمانية ،لأنه كان يعتبر أن الخلافة قد ماتت فعليا قبل ذلك، ولم يعد لها

آنذاك إلا وجودا رمزيا. وقد عبر عن رأيه من ذلك في مقال نشره في مجلة الِشّهاب" تحت عنوان:"الخلافة أم جماعة المسلمين؟"، جاء فيه: " فَيوْمَ ألْغَى الأتراكُ الخلافة الإسلامية ولسنا نبرر كل أعمالهم لم يُلغُوا الخلافة الإسلامية، بمعناها الإسلامي، وإنما ألغَوْا نظاما حكوميا خاصا بهم، وأزالوا رمزا خياليا فُتِنَ به المسلمون لغير جَدْوَى"[60]. ولعله في هذا الموقف غلبت عليه النزعة الواقعية بحكم الحالة التي وصلت إليها الخلافة العثمانية آنذاك. ولعل هذه الواقعية هي التي دفعته إلى طرح فكرة "جماعة المسلمين" بديلا عن الخلافة الإسلامية، حيث بين أن الأمة الإسلامية يمكن لها أن تنهض في ظل الأوضاع التي تعيشها في إطار" جماعة المسلمين"، التي تعنى بشؤون الامة من الناحية الادبية والمعنوية للأمة، حفاظا على قيم الإسلام وأحكامه وتشريعاته . لكن، عدم اهتمامه بإسقاط الخلافة العثمانية لم يكن يعن تفريطه في إسلامية تركيا على الأقل. صحيح، لقد والى الكماليين في بداية عهدهم بسبب ما ادعوه من رد الهجومات التي تتعرض لها الأمة الإسلامية، ورفعهم شعار أن الإسلام هو دين الدولة. لكن بعدما تبينت حقيقة سياستهم المعادية للإسلام دينا وحضارة، كان لا بد له ان يجهر بموقفه منهم فاعتبر" أن خلافة الكماليين باطلة من أصلها "[61]. وهكذا، عانق الإمام ابن باديس السياسة ومشاكلها، فعاش منافحا عن الوطن والأمة الجزائرية والعربية والإسلامية، مجاهدا من أجل بناء الوعي السياسي السليم للإنسان الجزائري، مسهما في حسم مصير الجزائر إلى الاستقلال الحضاري للجزائر قبل استقلالها السياسي عن فرنسا الاستعمارية. كما انه تميز باستقلاليته الفكرية وجراته في التعبير عن موقفه حتى وإن بدا استثنائيا (الموقف من الخلافة العثمانية). وتلكم بعض ملامح الفقيه السياسي ابن باديس.

خلاصة البحث:

إجمالا، يمكن القول إن الامام ابن باديس يعتبر بحق مصلحا سياسيا متميزا، كما يعتبر مصلحا تربويا رائدا. ولعله بتكوينه الفكري الأصيل وخبرته الدقيقة بالواقع، تمكن من اكتساب فقه إصلاحي عميق يصعب على المتسرعين والمستعجلين للنتائج أن يستوعبوه، كما يصعب على الحالمين والطوباويين القبول بمرونته وواقعيته.

لقد أسهم بجهاده التربوي العميق في بناء الشخصية المتكاملة للمسلم الجزائري لتأهيله لقيادة الأمة الجزائرية ضد السيطرة الاستعمارية المباشرة خلال حقبة الاستعمار، وخلال مرحلة ما بعد الاستعمار المباشر. كما أسهم رحمه الله في إنقاذ الجزائر من الاجتثاث الحضاري الذي كانت تعمل الدوائر الفرنسية جادة من أجله بسياساتها الإدارية والتعليمية والثقافية وامتيازاتها لضعاف النفوس...فاستطاع رحمه الله الحفاظ على الهوية الحضارية

الأصيلة للأمة للجزائرية من خلال مشروعه الإصلاحي المتميز بالتكامل الجدلي والمنطقي بين مكوناته الدينية التربوية ومكوناته السياسية النضالية. فاستحق رحمه الله أن يكون الأب الروحي للثورة الجزائرية، والمجدد الحضاري للأمة الجزائرية

الهوامش:

---

(1) (سورة الأحزاب : الآية 23)

(2) رواه الترمذي وغيره وصححه الألباني.

(3) أخرجه أبوداود في السنن.

(4) من الدراسات المهمة في موضوع التاريخ المقارن الحديث: عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوربا، ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، مسألة التجاوز**، المركز الثقافي العربي، 2000.

(5) **مشكلة العروبة في الجزائر**، محاضرة القاها الشيخ الإبراهيمي في ندوة الأصفياء، دار مصر للطباعة، 1955، ص.207.

(6) عمار الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره (جمع ودراسة)**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

(7) مصطفى محمد حميداتو، **عبد الحميد بن باديس رحمه الله وجهوده التربوية**، سلسلة كتاب الأمة، رقم 57، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، قطر، 1997، ص.107.

(8) **آثار الإمام عبد الحميد بن باديس**، ج4، ص.17.

(9) **البصائر.** السنة الثانية- العدد 83 - رجب 1356هـ / سبتمبر 1937م.

(10) **جريدة الشهاب** عدد 94، السنة الثالثة، 15 صفر 1345 هـ / 23 أوت 1926 م.

(11) عمار الطالبي، **كتاب آثار ابن باديس، المجلد الأول، تفسير وشرح احاديث**، الجزائر، ط. 3، 1997، ص.101.

(12) عبد الرشيد زروقة، **جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي 1913- 1940**، دار الشهاب، بيروت، 1999، ص.132- 136.

(13) **كتاب آثار ابن باديس،** ج1، ص.105.

(14) **آثار الإمام عبد الحميد بن باديس**، ج4، ص.ص.44.

(15) تركي رابح، **الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر**، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار ص.242.

(16) **آثار الإمام عبد الحميد بن باديس**، ج3، ص.9.

(17) عبد الحميد بن باديس: "صلاح التعليم أساس الإصلاح "، **الشهاب** ج 11، م 10، رجب 1353هـ – 10 أكتوبر 1934م، ص 478 – 481.

(18) **الشهاب**، ج 11، م 10، رجب 1353هـ – 10 أكتوبر 1934م. ص 478 – 481.

(19) **كتاب آثار ابن باديس**، ج1، ص.105.

(20) **كتاب آثار ابن باديس**، ج1، ص.107.

(21) **جريدة الشهاب:** الجزء 11 - المجلد 10 رجب 1353ه- أكتوبر1934م

(22) محمود قاسم: **الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية: الامام عبد الحميد بن باديس**، دار المعارف، مصر، 1968، ص63.

(23) **آثار الامام عبد الحميد بن باديس**، ج.4، ص.17.

(24) **مجلة الشهاب**، 16غشت1926، العدد :47.

(25) **كتاب آثار بن باديس**، ج1، ص.107.

(26) حول هذه الإجراءات، انظر: مصطفى محمد حميداتو، **عبد الحميد بن باديس رحمه الله وجهوده التربوية**، سلسلة كتاب الأمة، رقم 57.

(27) **جريدة الصّراط السّوي**، ع.15، الاثنين 8 رمضان 1352 ه/ 25 ديسمبر 1933.

(28) ورد في موقع "ملتقى أهل الحديث" تعليقا على النص المذكور اعلاه ما يلي:" وبعد فقد قال الشيخ الرئيس هذه الكلمات النيرات والمسلمون إذاك تحت نير الاستعمار الذي لا يختلف في كفره، وقد آتى المنهج أكله، فما لنا والحال أيسر لا نستمسك بغرز القوم، ولا نتعلم من عبر التاريخ، فلا بالنصوص تفقهنا ولا من العلماء استفدنا ولا بالأيام اعتبرنا والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله."**http://www.ahlalhdeeth.com** (تاريخ التصفح للموقع:2013/3/27 على الساعة:17:40).

(29) انظر العنصر الأول من هذا البحث المتعلق بالسياق التاريخي والحضاري.

(30) أحيل على هذه الندوة، ومحاور الندوة التي نظمتها مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس بالجزائر بعنوان: "**الفكر السياسي عند الإمام عبد الحميد بن باديس**"، يومي: 16 و17 أفريل 2012م.

(31) مسعود جباري، **الفكر السياسي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس دراسة تحليلية**، رسالة ماجستير في العلوم الاسلامية تخصص أصول الدين، جامعة الجزائر، كلية أصول الدين، 2001- 2002، ص.80.

(32) **جريدة الصراط السوي**، ع.15، في 18 رمضان1352هـ/25ديسمبر1933م.

(33) **البصائر**، العدد 43في 28 شعبان 1355هـ /13 نوفمبر 1936م.

(34) **البصائر**، العدد 71 في 9 ربيع الآخر 1356هـ /18يونيه 1937م .

(35) **آثار ابن باديس**، ج.5، ص.454.

(36) **آثار ابن باديس**، ج.4، ص.112.

(37) **آثار ابن باديس**، ج.3، ص. 240.

(38) **آثار ابن باديس**، ج.3، ص. 240.

(39) مسعود جباري، **الفكر السياسي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس**، رسالة ماجستير في أصول الدين، ص.

(40) عبد الرشيد زروقة، **جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر 1913- 1940**، ص.141- 159.

(41) **آثار ابن باديس**،ج.5،ص.292- 293.

(42) **آثار ابن باديس**،ج.5،ص.293- 294.

(43) **آثار ابن باديس**،ج.5،ص.583.

(44) **آثار ابن باديس**،ج.6،ص.203- 204.

(45) **آثار ابن باديس**،ج.6،ص.203.

(46) **آثار ابن باديس**، ج.5، ص.173.

(47) **مجلة الشهاب**، ج 12، ذي الحجة 1355هـ/ فبراير 1937 م.

(48) مجلة الشهاب، ج 12، ذي الحجة 1355هـ/ فبراير 1937 م.

(49) البصائر،ع 95، جمادي الثاني 1356. / 14 يناير 1938،

(50) عبد الرشيد زروقة، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر 1913- 1940،دار الشهاب،بيروت،1999،ص.140- 141.

(51) آثار ابن باديس،ج.5،ص.459.

(52) آثار ابن باديس،ج.5،ص.343- 344.

(53) آثار ابن باديس،ج.5،ص.305- 306.

(54) آثار ابن باديس، ،(مقدمة الدكتور عمار الطالبي)،ج.1،ص.88- 89.

(55) آثار ابن باديس،ج.3،ص.111.

(56) مجلة "الشهاب" بتاريخ جمادى الثانية 1357هـ الموافق لشهر أوت 1938 م.

(57) مجلة "الشهاب" بتاريخ جمادى الثانية 1357هـ الموافق لشهر أوت 1938 م؛ د. يوسف جمعة سلامة: "الإمام ابن باديس... والقضايا الإسلامية (القضية الفلسطينية نموذجاً) ½، عن موقع:http://www.binbadis.net (تاريخ الاطلاع :2013/3/29.)

(58) آثار ابن باديس، ج.5،ص.403.

(59) مجلة "الشهاب" بتاريخ جمادى الثانية 1357هـ الموافق لشهر أوت 1938 م.

(60) آثار ابن باديس، ج.5، ص370 .

(61) آثار ابن باديس،ج.6،ص.27.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- كتب الصحاح

- ابن باديس، عبد الحميد: "أيها المسلم الجزائري"، جريدة الشهاب عدد 94، السنة الثالثة، 15 صفر 1345 هـ / 23 أوت 1926 م.

- ابن باديس، عبد الحميد: "صلاح التعليم أساس الإصلاح"، مجلة الشهاب ج 11، م 10، رجب 1353هـ – 10 أكتوبر 1934م.

- ابن باديس: جريدة الصراط السوي، العدد15، 18 رمضان1352هـ/25ديسمبر1933م.

- ابن باديس: جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد 43، في 28 شعبان 1355هـ /13 نوفمبر 1936م؛

ابن باديس: جريدة البصائر، العدد71، في 9 ربيع الآخر 1356هـ /18يونيه 1937م ؛

- ابن باديس: جريدة البصائر، جريدة البصائر، العدد 83، رجب 1356هـ / سبتمبر 1937م؛

- ابن باديس: جريدة البصائر العدد 95، جمادي الثاني 1356 / 14 يناير 1938.

- ابن باديس: مجلة الشهاب، ج 12، ذي الحجة 1355هـ/ فبراير 1937 م.

- ابن باديس: مجلة الشهاب، جمادى الثانية 1357هـ الموافق لشهر أوت 1938 م.

- الإبراهيمي، محمد البشير: مشكلة العروبة في الجزائر، محاضرة القاها الشيخ الإبراهيمي في ندوة الأصفياء، دار مصر للطباعة، 1955.

- الطالبي، عمار: ابن باديس حياته وآثاره (جمع ودراسة)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

- الطالبي، عمار: آثار ابن باديس، المجلد الأول، تفسير وشرح احاديث، الجزائر، ط. 3، 1997.

- حميداتو، مصطفى محمد: عبد الحميد بن باديس رحمه الله وجهوده التربوية، سلسلة كتاب الأمة، رقم 57، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، قطر، 1997.

- جباري، مسعود: الفكر السياسي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس دراسة تحليلية، رسالة ماجستير في العلوم الاسلامية تخصص أصول الدين، جامعة الجزائر، كلية أصول الدين، 2001- 2002.

- قاسم، محمود: الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية: الامام عبد الحميد بن باديس، دار المعارف، مصر، 1968.

- القدوري، عبد المجيد: المغرب وأوربا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، 2000.

- زروقة، عبد الرشيد: جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر 1913- 1940، دار الشهاب، بيروت، 1999.

- سلامة، يوسف جمعة: "الإمام ابن باديس... والقضايا الإسلامية (القضية الفلسطينية نموذجاً)، عن موقع: http://www.binbadis.net(تاريخ الاطلاع :2013/3/29.)

<u>الجرائد والمجلات والمواقع الإلكترونية:</u>

مقالات للشيخ عبد ابن باديس في مواضيع مختلفة، منشورة في:

- جريدة الصراط السوي، العدد15، 18 رمضان1352هـ/25ديسمبر1933م.
- جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد 43، في 28 شعبان 1355هـ /13 نوفمبر 1936م؛
- جريدة البصائر، العدد71، في 9 ربيع الآخر 1356هـ /18يونيه 1937م ؛
- جريدة البصائر، جريدة البصائر، العدد 83، رجب 1356هـ / سبتمبر 1937م؛
- جريدة البصائر العدد 95، جمادي الثاني 1356 / 14 يناير 1938.
- مجلة الشهاب، ج 12، ذي الحجة 1355هـ/ فبراير 1937 م.
- مجلة الشهاب، جمادى الثانية 1357هـ الموافق لشهر أوت 1938 م.
- ❖ الموقع الالكتروني:"http://www.ahlalhdeeth.com (تاريخ التصفح للموقع:2013/3/27 على الساعة: 17:40).
- ❖ الموقع الإلكتروني: http://www.binbadis.net (تاريخ التصفح من 20 إلى 29 مارس2013).